انحراف العلماء
أسبابه وآثاره في القرآن الكريم
دراسة موضوعية تأصيلية

د. محمد بن سالم بن محمد البَيضاني الزهراني
الأستاذ المساعد بجامعة الملك خالد – أبها

من ٣٧٣٩ إلى ٣٧٨٨

المقدمة

الحمد لله المحمود بكل لسان، المعبود في كل زمان، الذي لا يخلو من علمه مكان، جلَّ عن الأشباه والأنداد، وتنزَّه عن الصاحبة والأولاد، ونفذ حكمه في جميع العباد، ثم أمَّا بعد.

فالقرآن الكريم حجة الله البالغة، ورسالته الخاتمة، أنزله هدىً ونوراً، ومن بيان القرآن الكريم وهداياته للتي هي أقوم؛ تصحيح المفاهيم الخاطئة، وبيان سبل الانحراف التي يجب على السائر إلى الله عز وجل أن يُدركها من شبهات وشهوات، أو ما يشوب العقول من شُبَه وأشكال، بدافع جهل وهوى؛ أو تلبيس من قِبَل شياطين الإنس والجن.

من ذلك انحراف علماء الأمة عن الصراط المستقيم، الذين طالما فتحوا على الناس أعيناً عمياً، وآذاناً صمَّاً؛ فإن العالم لا يقوم إلا على ركنين: طب الأديان، وطب الأبدان، وهما ركناه الأشدان، وقد كفى الله عز وجل الناس في العلماء؛ إمَّا بالموت أو بالضلال، فقال سبحانه: ﴿أَوَ لَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَاۚ﴾ [سورة الرعد: ٤١]. قال ابن عباس: "هو موت العلماء" ([١])، وكذا قاله غير واحد من السلف.

وأمَّا الضلال فهو مذكور هنا في هذه الآيات الكريمات التي نص الله تعالى علينا خبرها عن عالم من علماء بني إسرائيل، فهذا هو فَقْد العلماء حسَّاً ومعنىً، وفي الحديث؛ عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يقول: «إِنَّ اللَّهَ لاَ يَقْبِضُ العِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ العِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ العِلْمَ بِقَبْضِ العُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالًا، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا». ([٢])

([١]) ينظر: تفسير الطبري ١١/٥.

([٢]) أخرجه البخاري في صحيحه – كتاب العلم– باب كيف يقبض العلم – ٣١/١ الحديث رقم ١٠٠.

❖ أهمية البحث:

١. انتشار السبل المؤدية إلى الانحراف بشكل مريع عبر وسائل التواصل الاجتماعي والقنوات المشاهدة والمسموعة، في ظل الإغراءات المادية والوصول إلى الجماهيرية.

٢. أن العلماء هم ورثة الأنبياء وبهم صلاح الناس والمجتمعات، وهم ترياق النفوس والعقول، الذين لا قيادة ولا زمام ولا حياة إلا بهم.

❖ أهداف البحث:

١. المساهمة في توظيف الدراسات القرآنية في علاج المشكلات المعاصرة والنهوض بالأمة.

٢. التحذير من الانحرافات الفكرية والسلوكية الناتجة عن الميل إلى العرض الزائل وتقديم الحظوظ على كتاب الله عز وجل.

٣. بيان سبل الوقاية من هذه الانحرافات عبر هدايات الآيات وما ترشد إليه.

❖ حدود البحث:

اعتمدتُ في البحث على ما ذكره الله عز وجل في سورة الأعراف على وجه الخصوص في قصة بلعام بن باعوراء ([1]) المشار إليه في قوله تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ١٧٥﴾ [سورة الأعراف:١٧٥]، على أنه هو المقصود بالآيات في قول جمهور المفسرين ([2])، وجعلنا من مفاصل الآيات الواردة في حقه أسباباً وآثاراً، فإن الله عز وجل ذكر هذه القصة، وذكر في طياتها الإشارات البالغة في أسباب الضلال وآثاره على الفرد والمجتمع، وقد ذُكرتْ هذه القصة بعد الحديث عن الفطرة وسلامتها والتحذير من انحرافها بقوله تعالى:

([1]) وهو: بلعام بن باعوراء بن سموم بن مآب بن لوط بن هارون، أوتي العلم والحكمة. ينظر: تاريخ الطبري ٤٢٧/١. تفسير مبهمات القرآن للبلنسي ٤٩٦/١.

([2]) ينظر: البحر المحيط ٣١١/٥.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ١٧٤﴾ [سورة الأعراف: ١٧٤]. ما يُشير إلى أن أول أسباب ضلال العلماء هو انحراف الفطرة، ونقض العهد المأخوذ عليها، وهو سبب حقيقي في انحراف العلماء فضلاً عن غيرهم.

❖ منهج البحث:

سيكون المنهج المتبع في البحث؛ هو:

١. المنهج التأصيلي بتدبر الآيات وبيان هداياتها، إلى جانب المنهجية المتبعة في البحوث والدراسات.
٢. المنهج الاستقرائي بتتبع آيات القرآن الكريم وما صحَّ من الأحاديث المتعلقة بالموضوع.

❖ خطة البحث:

تتكون خطة البحث من مقدمة، وتمهيد، وفصلين، وخاتمة.

- المقدمة؛ وتتضمن ما يلي:

أهمية البحث، أهداف البحث، حدود دراسة البحث، منهج البحث، محتوى البحث.

- التمهيد؛ وفيه مطلبان:

المطلب الأول: تقدير الواقعة.

المطلب الثاني: طبيعة العلم الذي وهبه الله عز وجل لبلعام.

الفصل الأول: أسباب انحراف العلماء في القرآن.

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: الأسباب المنصوصة في القرآن الكريم.

وفيه سبعة مطالب:

المطلب الأول: انحراف الفطرة.

المطلب الثاني: الانسلاخ.

المطلب الثالث: الإخلاد إلى الأرض.

المطلب الرابع: حرمان التوفيق. مشيئة الله عز وجل السابقة في الإضلال.

المطلب الخامس: تقديم الحظوظ.

المطلب السادس: انتهاز الشيطان فرصة الضعف.

المطلب السابع: عدم العمل بالعلم.

المبحث الثاني: الأسباب المستنبطة من كتب التفسير على ضوء ما ورد في قصة بلعام.

الفصل الثاني: آثار انحراف العلماء في القرآن الكريم.

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: الجنوح إلى صفة البهائم.

المبحث الثاني: الهلاك.

المبحث الثالث: التسفيل.

- الخاتمة: وتشمل أهم النتائج والتوصيات.
- قائمة المصادر والمراجع.

التمهيد

المطلب الأول: تقدير الواقعة

ابتدأت القصة القرآنية لِرجُلٍ وهبَهُ الله عز وجل عِلماً؛ كما قال سبحانه: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾ [سورة الأعراف:١٧٥]، إنسان يوافيه الله آياته، ويخلع عليه من فضله، ويعطيه الفرصة كاملة للاتصال به والارتفاع، ثم يختار الانحطاط والسفل.

والمتفق عليه في كتب التفسير أنه رجل من بني إسرائيل، وأن القصة وقعت في تلك الحقبة، ففيها من أخبار هؤلاء القوم ما أخبر الله تعالى عنه في كتابه عن شأن بني إسرائيل وكثرة مخالفتهم واحتيالهم وتحريمهم لما أحل الله عز وجل. (١)

والقرآن الكريم يفيض بأخبار هؤلاء القوم وأحوالهم وعقوباتهم في أنفسهم وأموالهم، لذا لم تختلف كتب التفسير في تعيين الحقبة التي وقعت فيها هذه القصة الكريمة، سجَّلها القرآن الكريم أعظم تسجيل. لذا قال ابن عباس: كان من بني إسرائيل. (٢)

غير أن بعض المفسرين ذهب إلى أنه رجل من الكنعانيين، وهو المنسوب إلى كنعان من ولد نوح -ﷺ- (٣)، فهو على هذا يحتمل أنه قبل حقبة بني إسرائيل بأمد ليس بالقصير. ويحتمل أنه في زمن موسى -ﷺ-، وكلاهما وارد. وترجيح أنه كان في زمن موسى -ﷺ- أقرب إلى مجموع كلام أهل هذا الشأن.

وخالف آخرون مطلقاً كزيد بن أسلم، حيث قال: إنه أمية بن أبي الصلت (٤)، حيث إنه توخى الحنيفية في دين إبراهيم ورفض عبادة الأصنام، وحرَّم الخمر، وله شِعر كثير في

---

(١) ينظر: معالم التنزيل ٣/٣١٥.

(٢) المرجع السابق.

(٣) ينظر: الكشاف ٢/ ١٧٨. النكت والعيون ٢/٢٧٩.

(٤) نقله القرطبي في تفسيره ٣١١/٤. وعزاه للأكثر.

أمور الإلهية، فلما بُعث محمد -ﷺ- كذَّب به، وروى عنه قوله: «أنا أعلم أن الحنيفية حق، ولكن الشك يداخلني في محمد» ([1]). وقال فيه -ﷺ-: «آمَنَ شِعْرُهُ وَكَفَرَ قَلْبُهُ».([2])
وهذا القول بحاجة إلى ثبوت سبب النزول في شخص أمية بن أبي الصلت وجميع ما أُثر أنه لا شك أنه ثابت عنه، ولكن يبقى النظر في ثبوت القصة الواردة في سورة الأعراف في شخص أمية بن أبي الصلت.

والغريب أن القرطبي ([3]) نسبه إلى الأكثر ولم يقل به إلا زيد بن أسلم، والأكثرون كقول ابن عباس، ومجاهد، والسدي، أنه رجل من بني إسرائيل، مع اختلافهم في سبب الضلال. ([4])

وأبعد منه قول سعيد بن المسيب أنها نزلت في أبي عامر بن صيفي الراهب، ويلبس المسوح في الجاهلية، فكفر بالنبي -ﷺ- ([5])، والمعروف أن صيفي الراهب إنما نزل فيه قول الله تعالى: {وَإِرۡصَادًا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ} [سورة التوبة:١٠٧]، وذلك لما خرج إلى الشام يستنجد قيصر في الخروج على النبي -ﷺ- وقصته معروفة فوقع الخلط عند طائفة من المفسرين بما نزل في سورة الأعراف، وذكروا فيه هاتين الآيتين في سبب النزول وهو مشكل.

والتحقيق أن الآية الكريمة إنما نزلت في شأن هذا الرجل من بني إسرائيل، وإذا أردنا أن نعتمد على مرجح خارج لهذا القول؛ فإنا نستأنس بما ذكره القرطبي في تفسيره، أن أهل

([1]) تفسير القرطبي ٣١٥/٤.

([2]) تفسير البغوي ٢٥٠/٢.

([3]) هو: محمد بن أحمد بن أبي بكر الأنصاري الأندلسي، من كبار المفسرين، صالح متعبد، من أشهر كتبه: "الجامع لأحكام القرآن"، توفي سنة: ٦٧١ هـ. ينظر: الأعلام للزركلي ٣٢٢/٥.

([4]) تفسير القرطبي ٣١٦/٤.

([5]) ينظر: التحرير والتنوير ١٧٥/٩. البحر المحيط ٣٣٣/٥.

الكتاب ذكروا هذه القصة، يقول: "ذكر أهل الكتاب قصة عرفوها في التوراة"، ثم ذكر أنه من بني إسرائيل في زمن موسى – عليه السلام–. (١)

وإن كان الأولى في مثل هذا أن تُحمل هذه الأقاويل على التمثيل لا على الحصر، كي لا يؤدي إلى التناقض والاضطراب.

فإذا ثبت كونه رجل من بني إسرائيل؛ فقد وقع الخلاف بين علماء التفسير في تعيين شخصه واسمه، وإن كان تحديده لا يفيد كثيراً قدر ما تفيده الواقعة بعينها، وبما فيها من العبرة والعظة.

والقرآن الكريم لا يعتني بتسجيل الأسماء كثيراً؛ لأن الغرض من القصص القرآني هو ما فيها من العبرة، بقياس الحال على الحال لئلا تقع العقوبة.

ونحن إنما نذكره لأنه محل عناية عند أرباب التفسير، حيث لم يخل كتاب من كتب التفسير إلا وخاضت في تعيين شخص هذا الرجل. قال أبو حيان (٢): "هو شخص معيَّن". (٣)

وقال ابن عباس وابن مسعود ومجاهد: بلعام بن باعوراء. (٤)، وكذلك قال مالك بن دينار: أنه بلعام بعث إلى ملك مدين، فأعطاه وأقطعه مالاً فترك دين موسى –ﵟ–. (٥)

فهو بلعام في أكثر كتب التفسير، مع الخلاف في اسم أبيه (٦)، بلعام بن باعوراء أو باعر، أو أبرة، نظراً لعجمة الاسم في كتب التوراة؛ فالأسماء العجمية يصعب ضبطها.

---

(١) ينظر: تفسير القرطبي ٣١٦/٤.

(٢) هو: محمد بن يوسف بن علي، أبو حيان الغرناطي الأندلسي، صالح متعبد، من كبار العلماء بالعربية والتفسير، من أشهر كتبه: "البحر المحيط"، توفي سنه: ٧٤٥. ينظر: الأعلام للزركلي ٢٥٢/٧.

(٣) البحر المحيط ٣٠١/٣.

(٤) تفسير القرطبي ٣١١/٤. معالم التنزيل ٣٥/٤.

(٥) زاد المسير ٥١١/٤.

(٦) البحر المحيط ٣١١/٣.

قال ابن عباس: كان من أهل اليمن، وقال مجاهد: من مدينة الجبارين، وقال مقاتل: من مدينة بلقا. ([1])

واستبعد ابن عاشور ([2]) كونه بلعام بن باعوراء؛ وقال: أن القصة مأخوذة من كتب أهل الكتاب حيث إنهم ذكروها وخلطوها وغيروها واختلفوا فيها، ثم قال: (والتحقيق أن بلعام هذا كان من صالحي أهل مدين وعرافيهم في زمن مرور بني إسرائيل على أرض (مؤاب) ولكنه لم يتغير عن حال الصلاح). ([3])

والغريب أن يلجأ ابن عاشور إلى ترجيح هذا القول بما هو مذكور في سِفر العدد من التوراة في الإصحاحات (٢٤-٢٣-٢٢)، من أن بلعام بقي على حال الصلاح ولم يتغير.

وفي هذا نظر واضح، فإنه لا يصح الاستشهاد بما جاء في التوراة فضلاً عن الترجيح بما ورد فيها، لأننا لا نأمن عليها من التبديل.

وأما القول إن القصة جرت مجرى الأمثال ولا علاقة لها بشخص بعينه، وأن الله عز وجل ضربه للمؤمنين على سبيل التقريب للأفهام ([4])، فهو مخالف لمقصود الآيات؛ لكونها جارية على سبيل الحقيقة لا على سبيل الخيال، والأصل في الأمثال القرآنية أنها ملتصقة بالأعيان، وأن القرآن إنما ينزل لبيان ملابساتها وآثارها.

([1]) ينظر: البحر المحيط ٣/٣١١-٣١٣.

([2]) هو: محمد الطاهر بن عاشور، رئيس المفتين المالكيين بتونس، من أشهر كتبه: "التحرير والتنوير"، توفي سنة: ١٣٩٣ هـ. ينظر: الأعلام للزركلي ٦/١٧٤.

([3]) التحرير والتنوير ٤/٢٥.

([4]) وهو لا يشبه قول قتادة: "أن هذا مثل ضربه الله لمن عرض عليه الهدى ولم يقبله"، فإنه ليس من هذا القبيل.

المطلب الثاني: طبيعة العلم الذي أعطاه الله عز وجل لبلعام بن باعوراء

لم يكن بلعام نبياً، وإن كان قد قيل به، فقد قال مجاهد: أنه أوتي النبوة فرَشاه قومه على أن يسكت ففعل وتركهم على ما هم عليه من المنكر (١)، وقد ردَّ هذا القول الماوردي (٢) بقوله: (وهذا غير صحيح لأن الله تعالى لا يصطفي لنبوته إلا من علم أنه لا يخرج عن طاعته إلى معصيته). (٣)

فالقول إن بلعام كان نبياً من أضعف الأقوال، إذ لا دليل على نبوته، ولم يُعرف في قومه بالنبوة، فإن النبي إنما تُعلم نبوته بما معه من الآيات والمعجزات، ولم يُذكر عن بلعام أنه جاء بما يدل على النبوة.

وإذا ثبت ما نقله القرطبي عنه في تفسيره: "من أنه أول من صنَّف كتاباً في أن ليس للعالم صانع" (٤)؛ بطل القول بنبوته جملة وتفصيلاً. (٥)

وفي طبيعة العلم الذي وهبه الله عز وجل لهذا الرجل كلام للمفسرين لم يخل بعضه من الضعف والبطلان والتقوُّل عن أهل الكتاب، والله عز وجل إنما أخبر أنه آتاه الآيات بقوله: {وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا} [سورة الأعراف:١٧٥]، والآيات: جمع آية، وهي جنس في العلوم التي لا تكون من قبيل الاكتساب والنظر، لذا فقد خاض المفسرون في هذه العلوم التي لا تخضع للنظر والاكتساب.

---

(١) تفسير القرطبي ٤/٢٢٥. وهو قول عكرمة أنه كان نبياً وأوتي كتاباً. وهو ضعيف.

(٢) هو: علي بن محمد الماوردي، صاحب التصانيف النافعة، كان له مكانة عند الخلفاء، من أشهر كتبه: " النكت والعيون"، توفي سنة: ٤٠٥ هـ. ينظر: سير أعلام النبلاء للذهبي: ١١/٥.

(٣) النكت والعيون ١١٣/٣.

(٤) ينظر: تفسير القرطبي ٤/٢٢٥.

(٥) وقد ردَّه الرازي في تفسيره ٢١/٥ بقوله: "وهو بعيد لأنه تعالى أعلم حيث يجعل رسالته، وذلك يدل أنه تعالى لا يشرِّف عبداً من عبيده بالرسالة إلا إذا علم امتيازه عن سائر العبيد بمزيد من الشرف".

لذا قال القرطبي: "أنه لم يقل آية" (١) أي بلعام. وفي الحديث عن النبي -ﷺ-: «**الْعِلْمُ عِلْمَانِ: عِلْمٌ فِي الْقَلْبِ، فَذَلِكَ الْعِلْمُ النَّافِعُ، وَعِلْمٌ عَلَى اللِّسَانِ، فَذَلِكَ حُجَّةُ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ**». (٢)

فقيل: "أنه كان بحيث إذا نظر رأى العرش" (٣)، وأمارة الضعف عليه واضحة مع عدم إمكان تصور ذلك، ثم إنه لا يطلق على من كان حاله أنه أعطي الآيات، فإن القدرة على النظر إلى العرش لا يسمى علماً.

وقال ابن زيد: «كان مجاب الدعوة، وكان لا يسأل الله شيئاً إلا أعطاه إياه» (٤)، وعلى هذا القول فالمراد بالآيات هو الصلاح والهدى بحيث كان؛ إذا دعا الله أجاب دعاءه لما فيه من الخير والصلاح.

والسبب أنه كان يعلم اسم الله الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب، ومما زِيد في القصة ولا تصح؛ أنه دعا على موسى -ﷺ-، فقام ليدعو فتحول لسانه بالدعاء على أصحابه واندلع لسانه على صدره. (٥)، وأمارة الضعف عليه واضحة، وهو من جملة ما يذكره المفسرون في أخبار أهل الكتاب، وأُثر عن مقاتل: "أن بلعام دعا على موسى ألا يدخل مدينة الجبارين، فاستجيب له وبقي في التيه، فقال موسى: يا رب بأي ذنب بقينا في التيه، فقال: بدعاء بلعام، قال: فكما سمعت دعاءه عليَّ فاسمع دعائي عليه، فدعا موسى أن ينزع الله عنه الاسم الأعظم، فسلخه الله ما كان عليه". (٦)

---

(١) تفسير القرطبي ٢٢٥/٤.

(٢) ذكره ابن المبارك في الزهد والرقائق باب- فضل ذكر الله ﷻ، ٤٠٧/١ رقم ١١٦١، وابن أبي شيبة في مصنفه، كتاب- الزهد، باب- ما ذكر عن نبينا ﷺ في الزهد، ٨٢/٧ رقم ٣٤٣٦١.

(٣) تفسير القرطبي ٢٢٥/٤. البحر المحيط ٣٠/٤.

(٤) ذكره الطبري ١٢٢/٩ بسند جيد. والثعلبي ١٢٣/٦. والبغوي ٣٠٤/٣.

(٥) أورده الثعلبي في تفسيره ٤٩٦/٤.

(٦) تفسير القرطبي ٣٣٥/٥.

وفي هذا الأثر عن مقاتل من الغرائب ما لا يخفى، مع الجزم أنه من أخبار بني إسرائيل، فإن الله لا يستجيب دعاء شخص على آخذ بغير حق، فكيف إذا كان المدعو عليه نبياً أو رجلاً صالحاً؟ ولم تذكر الروايات سبب دعاء بلعام على موسى -عليه السلام-، إذ لا يمكن أن يقع من نبي ظلماً لأحد حتى يدعو عليه ويستجيب الله دعاءه. وموسى -ؑ- إنما بُعث إلى قومه يدعوهم لعبادة الله وحده لا شريك له، كما قال الله تعالى: {ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ} [سورة الأعراف:٥٩]، وهو لم يُبعث ظلماً أو أخذاً لحق من حقوق الناس؛ كما قال النبي -ﷺ-: «إِنَّ اللَّهَ يَخْفِضُ وَيَرْفَعُ، وَلَكِنِّي أَرْجُو أَنْ أَلْقَى اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، وَلَيْسَ لِأَحَدٍ عِنْدِي مَظْلِمَةٌ». (١)

فهذا الأثر عن مقاتل لا شك أنه من أخبار بني إسرائيل المنقولة والكثيرة في تشويه قصص الأنبياء، كما وقع لداود وسليمان -عليهما السلام-.

وأضعف منه قول من ذكر "أنه أعطي ثلاث دعوات مستجابات يدعو بها في مصالح العباد، فجعلها كلها في امرأته، وكانت قبيحة؛ فسألته فدعا الله فجعلها جميلة، فمالت إلى غيره، فدعا الله عليها فصارت كلبة نباحة، وكانت لها بنون فتضرع إلى الله فدعا الله فصارت إلى حالتها الأولى". (٢)

وهذا الأثر واضح الضعف والبطلان، فإن الله لم يكن ليستجيب لعبد أمره بأمر ثم جعله في غيره، فإن الله عز وجل أمرَه أن يجعل دعواته التي وعده باستجابتها في مصالح العباد؛ فعدل بها إلى زوجته، وهي مخالفة لما أمره الله به، فكيف يقال: أن الله استجاب دعاءه لما خالفه في أمره؟

وهكذا جملة ما يرويه أهل الكتاب لابد أن نجد في سياقه ما يدل على ضعفه من قريب أو بعيد.

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه، باب في التسعير، ٢٧٢/٣، رقم ٣٤٥٠. وأحمد في مسنده ١٦٣/١٤، رقم ٨٤٤٨.

(٢) البحر المحيط ٢١٥/٥.

وعلى سبيل صحته؛ فهو يدل على خطر الدعاء على الصالحين بغير حق، أو استخدام النعم في معصية الله عز وجل ؛ لكونه ينافي الشكر الذي هو وضع النعمة في طاعة الله عز وجل.

قال أبو حيان: "الذي آتيناه آياتنا اسم الله الأعظم، أو الآيات في كُتب الله، أو حجج التوحيد، أو من آيات موسى، أو العلم بمجيء الرسول". ([1])

وهذا النقل يشير إلى أن علم بلعام علم من قبيل النظر والبحث، حيث إنه أولى علماً ببعض كُتب الله تعالى، وأنه قرأها وأصبح بها عالماً لذا قال أبو حيان: "وقال قد حفظ بعض الكتب المنزلة " ([2])، وهي علوم الكتب القديمة.

وهذا أيضاً لا يصح من غير نظر فيه ولا بحث.

فهذا مجمل ما قيل في الآيات التي أعطاها الله عز وجل لهذا الرجل.

([1]) البحر المحيط ٤/٤٤٥.

([2]) المرجع السابق.

الفصل الأول: أسباب انحراف العلماء في القرآن.

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: الأسباب المنصوصة في القرآن الكريم.

وفيه سبعة مطالب:

المطلب الأول: انحراف الفطرة.

المطلب الثاني: الانسلاخ.

المطلب الثالث: الإخلاد إلى الأرض.

المطلب الرابع: مشيئة الله عز وجل السابقة في الإضلال.

المطلب الخامس: تقديم الحظوظ.

المطلب السادس: عدم العمل بالعلم.

المطلب السابع: انتهاز الشيطان فرصة الضعف.

المبحث الثاني: الأسباب المستنبطة من كتب التفسير على ضوء ما ورد في قصة بلعام.

المبحث الأول: الأسباب المنصوصة في القرآن الكريم.

المطلب الأول: انحراف الفطرة

لم تذكر الآيات الكريمات هذا السبب بشكل مباشر؛ وإنما هو من علاقة الآيات ببعضها، فالمقطع ابتدأ بذكر العناية بالفطرة بقوله تعالى: {وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ} [سورة الأعراف:١٧٢]. وهي ما أودع الله عز وجل في قلوب خلقه من قوة البصيرة والإدراك الذي أشهدهم عليه بعد ذلك، ثم حذرهم سبحانه عن النكوص عنها بقوله: {وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ١٧٤} [سورة الأعراف:١٧٤]، وتمثل للانحراف عن سواء الفطرة، ونقض العهد المأخوذ عليها، والنكوص عن آيات الله بعد روايتها والعلم بها؛ ذلك الذي آتاه الله آياته، هذا هو الظاهر في ربط الآيات ببعضها، أن الآيات السابقة سبب للاحقة، انحراف العلماء المسبوق بانحراف الفطرة.

تبين هذه الآيات تلازم في الميثاق والبقاء عليه أو النكوص عنه، قال ابن عاشور: (أعقب هذه الآيات ما يفيد أن التوحيد جُعل في الفطرة، ومناسبتها للتي قبلها العبرة من حال الذين أخذ الله عليهم العهد بالتوحيد، وأمده الله بعلم يعينه على الوفاء بما عاهد الله عليه من الفطرة، ثم لم ينفعه ذلك كله حين لم يقدر الله له الهدى المستمر).(١)

والمقصود من الآيات هو التأكيد أن فطرة الإنسان قد تتعرض لعوامل الانحراف، كما جاء في الحديث عن النبي -ﷺ- أنه قال: قال الله تعالى: «وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا» (٢)، وهنا يأتي دور العلماء لاستنقاذ فِطَر

---

(١) التحرير والتنوير ٢٣٥/٤.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه- كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها- باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، ٢١٩٧/٤، رقم ٢٨٦٥.

الناس من الركام والتعطل والانحراف، واستنقاذ عقولهم من ضغط الهوىٰ والضعف والشهوات.

والتعبير بالانسلاخ بعده له علاقة بالفطرة المستقيمة، وقد جعله البقاعي (١) سببًا في مناسباته؛ فقال: (ولما ذكر لهم ما أخذ عليهم في كتابهم من الميثاق الخاص الذي انسلخوا منه، وأتبعه بالميثاق العام الذي قطع به الأعذار، أتبعهما بيان ما يعرفونه من حال من انسلخ من الآيات فأسقطه الله من ديوان السعداء). (٢)

---

(١) هو: إبراهيم بن عمر بن حسن الرُّبَاط البقاعي، مؤرخ أديب، توفي سنة: ٨٨٥ هـ. ينظر: الأعلام للزركلي ٥٦/١.

(٢) نظم الدرر ٣٣٥/٧.

المطلب الثاني: الانسلاخ

ذكر الله عز وجل عن أمر بلعام أنه أعطاه الآيات؛ فانسلخ منها.

(والانسلاخ: الخروج مطلقا. يقال: انسلخت الحية من جحرها إذا خرجت. ويقال: لكل من فارق شيئا بالكلية انسلخ منه). (١)

واللفظ القرآني يدل على أمرين:

"الأول: أن الانسلاخ إنما وقع منه ابتداءً.

الثاني: أن لفظ الانسلاخ يدل أنه كان فيها ثم خرج خروجا كليا". (٢)

وفيه معنى ثالث أيضاً: أن لفظ الانسلاخ يدل على التلبس بالشيء؛ كما قال أبو حيان: (جعل كأنه متلبسا بها كالثوب فانسلخ منها، وهذا من إجراء المعنى مجرى الجزم). (٣)

وفي اللفظ من لطائف المعاني، أن الآيات التي أعطاه الله إياها كانت بمنزلة الغطاء والوقاء الذي يحميه ويحمي جسده، فلما تجرد من الغطاء الواقي والدرع الحامي، أصبح عرضاً للشيطان، لا يقيه منه واقٍ، ولا يحميه حامٍ.

وهذا المعنى الدقيق يدل أنه لما تخلص من أديم العلم والهداية؛ أبدله الله بأديم الكلب اللاهث.

وفي اللفظ القرآني بالتعبير بالانسلاخ مبالغة في التبري منها والبعد.

والانسلاخ في المحسوسات هو: "خروج جسد الحيوان من جلده حينما يُسلخ عنه، وإزالة الجلد عنه، واستعير في هذه الآية للانفصال المعنوي"، كما أفاده ابن عاشور. (٤)

فهذا هو المراد بالانسلاخ من حيث أصل الوضع العربي؛ من جهة الحسن والمعنى.

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٢/٢٩٩.

(٢) مفاتيح الغيب ٣/٣٣٥.

(٣) البحر المحيط ٤/٢١٥.

(٤) ينظر: التحرير والتنوير ٤/٥١١.

وقد تباينت أراء المفسرين في المراد باللفظ في أقوال لا يعارض بعضها بعضاً، وسأذكرها مع الفوائد المتعلقة بها، وكلها لا تتجاوز أصل الوضع العربي؛ من مطلق الخروج عن الشيء.

وكلامهم يدور إما في عمل القلب، أو عمل الجوارح.

أما الأقوال المتعلقة بعمل القلب، فقال الزمخشري (١): (كفَر بها وأعرض، ونبذها وراء ظهره). (٢)

وقال ابن عطية (٣): (السلخ: عبارة عن البراءة في الآيات، والانفصال والبعد) (٤)، وظاهر هذا النقل أن المراد التكذيب، وعدم الإيمان، لكون البراءة متعلقة بالقلب، فهو أولًا تبرأ؛ ثم فعَل ما يوجب البراءة.

وصورة هذا الكفر والاعراض ستأتي في سرد أسباب انحراف العالم المنصوصة في كتاب الله عز وجل، والمستنبطة من كلام أهل هذا الشأن.

والمراد أنه عمل عملاً يوجب الكفر والبراءة من الآيات التي وهبها الله عز وجل له.

ومن صور هذا التكذيب ما ذكره الرازي (٥) بقوله: (خرج من محبة الله إلىٰ معصيته، ومن رحمة الله إلىٰ سخطه، ومن الضلال إلىٰ الهدىٰ). (٦)

---

(١) هو: محمود بن عمر الخوارزمي، جار الله. عالم باللغة والأدب والتفسير، جاور بالمسجد الحرام فلُقِّب بجار الله، توفي سنة: ٥٣٨ هـ. ينظر: الأعلام للزركلي: ٣٣٥/٣.

(٢) الكشاف ٢٧٨/٢.

(٣) هو: عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن عطية المحاربي، المفسر، فقيه أندلسي، من أشهر كتبه: "المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز"، توفي سنة: ٥٤٢ هـ. ينظر: الأعلام للزركلي: ١١/٦.

(٤) المحرر الوجيز ٣٢٣/٥.

(٥) هو: محمد بن عمر بن الحسن التيمي المفسر، أوحد زمانه في المعقول، من أشهر كتبه: " مفاتيح الغيب، وأساس التقديس"، توفي سنة: ٦٠٦ هـ. ينظر: الأعلام للزركلي: ١١/٥.

(٦) مفاتيح الغيب ٢٥/٤.

وأما ما يتعلق بأعمال الجوارح، فقد قال الماوردي: (فانسلخ منها وجهان: أحدهما: انسلخ من العلم لأنه سيسلب ما أوتي منه بالمعصية، والثاني: انسلخ من الطاعة إلى المعصية مع بقاء علمه بالآيات). (١)

وأما القرطبي فله في معنى الانسلاخ معنىً تشهد له الأدلة القرآنية، فقد قال: (أن المراد بالانسلاخ هو عدم العمل بما تقتضيه الآيات). (٢)

وفيه ما يشهد أن عدم العمل بالعلم سبب في الضلال والزيغ، وأن العمل به طريق الثبات، لذا قال الله تعالى: {وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا ٦٦} [سورة النساء:٦٦].

والانسلاخ في نفسه ورفض الآيات، وعدم استشعار مهابتها وعظمتها وجلالها؛ سبب في الانحراف لأنه لا يعرف قدرها، ولو عرف قدرها لما خالفها بالهوى.

وصورة هذا الانسلاخ فيما يذكره المفسرون في أسباب انحرافه:

ما ذكره مجاهد أنه أوتي النبوة فرَشاه قومه على أن يسكت؛ ففعل وتركهم على ما هم عليه. (٣)

وهذا قد بيَّنا غلطه سابقا، وقد أبطله ابن كثير (٤) بقوله: (ونقل القرطبي أنه لم يشكر الله يوما من الأيام على ما أعطاه، ولو شكره على ذلك لما سلبه النعمة). (٥)

وهذا فيه ضعف، فإن عدم شكر النعمة ليس كفراً في أصله، إلا إذا قصد إنكار كونها من المنعم وهو غير وارد.

---

(١) النكت والعيون ٢/٢٥.

(٢) تفسير القرطبي ٤/٢١١.

(٣) تفسير القرطبي ٣/٣٣٥.

(٤) هو: إسماعيل بن عمر بن كثير بن درع القرشي، أبو الفداء، عماد الدين: حافظ مؤرخ فقيه، من أشهر كتبه: "البداية والنهاية، وتفسير القرآن العظيم"، توفي سنة: ٧٧٤ هـ. ينظر: الأعلام للزركلي ١/٣٢٠.

(٥) تفسير ابن كثير ٢/٣١١.

وسيأتي مزيد بيان لذلك عند ذكر الأسباب المستنبطة في القصة في سبب الانحراف –إن شاء الله–.

قال القرطبي: "من أخلاق الكلب الوقوع بمن لم يُخِفه على جهة الابتداء بالجفاء، ثم تهدأ طائشته بنيل كل عرض خسيس. ضربه الله مثلا للذي قبل الرشوة في الدين حتى انسلخ من آيات ربه. فدلت الآية لمن تدبرها على ألا يغتر أحد بعمله ولا بعلمه، إذ لا يدري بما يختم له. ودلت على منع أخذ الرشوة لإبطال حق أو تغييره". ([1])

([1]) ينظر: تفسير القرطبي ٣/٣٣٥.

المطلب الثالث: الإخلاد إلى الأرض

في اللفظ القرآني في التعبير بـ" الإخلاد " من الإيحاءات ما يشير إلى أنه كان في رفعة وعزَّة ومِنعة، ثم صار إلى الأرض والسفل، وهو يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا﴾ [سورة الأعراف:١٧٦]، وفيه أيضًا: أنه أخلد إلى السفل بعد أن كان عاليًا، وهو يدل على لزوم الأرض وطول البقاء فيها، وعدم العودة إلى ما كان عليه من الخير.

والإخلاد: "اللزوم. يقال: أخلد فلان بالمكان، إذا أقام به ولزمه" ([1])، والتعبير بـ" الأرض " باعتبار ما فيها من الملاهي والملذات.

وفي المعنى المقصود بالآية أقوال لا يعارض بعضها بعضًا، فكلها تدور حول الميل إلى الدنيا والركون إليها، ويبقى البحث في صورة الإخلاد التي عوقِب بها بلعام.

قال ابن عباس: مال إلى الدنيا. وقال مقاتل: رضي بالدنيا. ([2])

والميل إلى الدنيا لا يكون إلا بالرضى بها أولاً، فالإنسان لا يميل إلى ما يكره. وكذا قول من قال: رَكَن إليها. هو في نفس المعنى، لكن الملاحظ أنهم فسروا الأرض بالدنيا لا بحقيقتها، وإنما لِما فيها من الملهيات والملذات إلى أنه مال إلى ما فيها من المغريات.

وقد سوَّغه الواحدي ([3]) في تفسيره بكلام يعوَّل على مثله بقوله: "فهؤلاء فسروا الأرض بالدنيا، لأن ما فيها من العقار والضياع كلها أرض، وسائر أمتعتها من المعادن والنباتات والحيوان تستخرج من الأرض، فالدنيا كلها أرض، فصلح أن يعبر عن الدنيا بالأرض". ([4])

([1]) ينظر: معاني القرآن للفراء ٢/٢١١.

([2]) معالم التنزيل ٤/١٥١. البحر المحيط ٤/٣١١.

([3]) هو: الإمام العلامة، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد الواحدي، النيسابوري، إمام علماء التأويل، من أشهر كتبه: "البسيط، والوسيط، والوجيز"، توفي سنة: ٤٦٨ هـ. ينظر: سير أعلام النبلاء للذهبي ١٨/٣٣٩.

([4]) ينظر: البسيط ٤/٣٣٥.

والآية الكريمة تدل على أن هذا العالم هبط من مكان الإنسان إلى مكان الحيوان، لأن الحياة الدنيا هي محل الحياة؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٦٤﴾ [سورة العنكبوت:٦٤]، لكون الإيمان جناح العبد الذي يرتقي به، ولكنه لم يخالط بشاشة قلبه.

ومن صور الإخلاد العامة التي يذكرها المفسرون في كتبهم، ما نقله أبو حيان بقوله: "أخلد إلى الأرض أي: مال إلى السفاهة والرذالة، كما يقال: فلان في الحضيض عبارة عن انحطاط قدره بانسلاخه من الآيات". ([1])

وهذه صورة عامة لا تمتُّ إلى صورة السبب الواردة في حقه.

ومن الصور العامة المحتملة إيثاره الحق على الباطل، وتقديم محاب النفس على محاب الله عز وجل ، وقبوله الرشوة المنقولة عنه.

وكل هذه صورة تدخل في عموم اللفظ من غير جزم بواحدة منها، بل كلها يصدقها اللفظ القرآني الذي من شأنه العموم والشمول.

وقد يقال: كل ماله صلة بالأرض ولا يمتُّ بالعالم العلوي فهو إخلاد إلى الأرض. – وليس شيء أعم من هذه العبارة–.

وقد يشهد لقول من قال من المفسرين: "أن بلعام قبِل الرشوة على أن يترك قومه بلا رسالة ولا نصيحة بعد أن كان نبيًا". نعم قد يدل عليه النص القرآني؛ لأنها صورة صحيحة تعبر عن الإخلاد إلى الأرض لو صح هذا القول". ([2])

والنفوس البشرية التي لم يعكر صفو فطرتها وارد أو معكر؛ تهفو إلى السماء وإلى العلو وإلى طلب الكمالات، وكلما انحدرت إلى مستوى الطين نزلت إلى الأرض بمقدار ذلك الانحدار، وكل ما اشتهى الإنسان ما يضره فهو دليل على فساد فطرته وانحرافها، وهذا يعود بنا إلى المبحث الأول في سلامة الفطرة واستقامتها، وإلى أصل قوله عز وجل :

([1]) ينظر: البحر المحيط ٤/٣١١.

([2]) ينظر: تفسير القرطبي ٤/٢١٥.

«وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا». (١)

والأصل في هذا هو ميل القلب إلى غير محاب الله عز وجل، لذا قال ابن عجيبة (٢): (ذكر تعالى أنه أعطاه آياته، ولو أعطاه قرب مشاهدته ما أخلد إلى الأرض، لأن من رآه أحبه، ومن أحبه استأنس به واستوحش عما سواه، فمن ذلك تبين أنه كان مستدرجًا لِنعم الله وآياته). (٣)

ويشهد له قول قيصر الروم: «وَكَذَلِكَ الْإِيمَانُ حِينَ يُخَالِطُ بَشَاشَةَ الْقَلْبِ». (٤)

وفي الآية الكريمة دليل ظاهر أنه لا يمكن أن تجتمع الضرتان في قلب المؤمن، حب الدنيا وحب الآخرة، لأن أحدهما علوي والآخر سفلي، وإن اجتمعتا في الظاهر، فلن تدوم طويلاً، أو لأنه سبيل إلى الاستدراج.

ومن صور الإخلاد العامة والتي لم تدرج في القصص الواردة في حق بلعام في كتب المفسرين، ما قاله أبو روق: "غلب على عقله هواه فاختار دنياه على أخراه"، (٥) وهذا منصوص عليه بقوله: ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ﴾ [سورة الأعراف:١٧٦].

وقدَّر أبو حيان أن في الآية قلبًا، أي: أنه لما أخلد إلى الأرض انسلخ من الآيات على أن يكون سبب الانسلاخ هو الإخلاد إلى الأرض، وهذا المعنى صحيح في نفسه فإن كل من مال إلى شيء من حظوظ الدنيا نزع الله الأمانة من قلبه. (٦)

---

(١) سبق تخريجه ينظر: ص: ١٥.

(٢) هو: أحمد بن محمد المهدي، مفسر صوفي من أهل المغرب، من أشهر كتبه: "البحر المديد في تفسير القرآن المجيد"، توفي سنة: ١٢٤٤ هـ. ينظر: الأعلام للزركلي ١/٢٤٥.

(٣) البحر المديد ١١/٥.

(٤) أخرجه النسائي في سننه الكبرى– باب قوله تعالى: قل يا أهل الكتاب تعالوا، ٤٤/١٠، رقم ١٠٩٩٨.

(٥) ينظر: البحر المحيط ٣١٢/٤.

(٦) البحر المحيط ٣١٣/٤.

لذا قال الله ¸ لنبيّه: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَرِزۡقُ رَبِّكَ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ ١٣١﴾ [سورة طه:١٣١]. فالآية تقتضي الزجر عن التشوف إلى متاع الدنيا على الدوام، وإقبال العبد على عبادة مولاه.

قال القرطبي: (ورأى الفداء والمخلصون من الفضلاء الانكفاف عن الملذات والخلوص لرب الأرض والسماوات، لما غلب على الدنيا من الحرام). ([1])

ومن صور الإخلاد التي لا تثبت والتي يذكرها المفسرون في كتبهم: "أنه تراءى له الشيطان على غلوة من قنطرة، فسجدت الحمارة لله، وسجد بلعام للشيطان". ([2])

وعلى العلماء أن يكونوا أبعد الناس عما في أيدي الناس، لا ينظرون إلى الدنيا بعين الإكبار، فقد مضت سنَّة الله في خلقه؛ أن من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد، ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورًا، فإن حب الدنيا رأس كل خطيئة.

والعلم من شأنه تهذيب النفوس والأرواح، فإذا تعلق العالِم بشيء من أغراض الدنيا بعده، فهو دليل أنه لم يرفع بالعلم رأسًا؛ ولم ينتفع به؛ ولم يصقل قلبه إلى الله ﴿.

([1]) تفسير القرطبي ٢١١/٤.

([2]) أورده ابن كثير عن أبي الزاهرية وشكَّك في صحته ٢٥/٢. وعلامات الضعف عليه واضحة.

الرفعة من لوازم العلم النافع، والقلب الصادق، كما قال تعالىٰ: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ﴾ [سورة المجادلة:١١]. وهو شامل للثواب في الآخرة والكرامة في الدنيا، كما قاله القرطبي (١)، وقال ابن مسعود: "مدح الله العلماء في هذه الآية" (٢)، والمعنىٰ أنه يرفع الذين أوتوا العلم علىٰ الذين لم يؤتوا العلم درجات في دينهم؛ إذا فعلوا ما أُمِروا به، لأنه قرن الرفعة بالعلم مع الإيمان به سبحانه وتعالىٰ.

والمقصود بالرفعة في الآخرة: هي الدرجات في الجنة، وأما في الدنيا فهي كقوله تعالىٰ لنبيه -ﷺ-: {وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ ٤﴾ [سورة الشرح:٤]، أي: بالذكر الحسن في الدنيا، كما قال سبحانه في شأن إبراهيم -ﷺ-: {وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ٨٤} [سورة الشعراء:٨٤]، أي: لو رفعه بالعلم لما ضل، لأنه رفعه درجات وقضىٰ له بالخير في أخراه، وسبق له كتابه بالسعادة له في الدنيا والآخرة؛ فلا يضل ولا يشقىٰ، ولكنه لم يشأ سبحانه ذلك لسبب تعلق به.

وهي شاملة أيضا لرفعة القلب وطهارته، والرقي بالنفس إلىٰ كمالاتها وزكائها.

وإلىٰ جانب العلم شرط الإيمان بالله عز وجل ، لأنه قرَن بينهما سبحانه، وقوَّاه أبو حيان بقوله: (والعطف مشعر بالتغاير، وهو من باب عطف الصفات، والمعنىٰ: يرفع الله المؤمنين درجات) (٣)، وقال ابن مسعود: "ثم الكلام عند قوله {مِنكُمۡ} فللمؤمنين رفع، وللعلماء رفع". (٤)

---

(١) تفسير القرطبي ٤/٤٢٥.

(٢) زاد المسير ٤/٣٣٣.

(٣) البحر المحيط ٣/٣٣٥.

(٤) ينظر: البحر المحيط ٣/٣٣٦.

وعلى اشتراط الإيمان والعلم فقد زاد القرطبي العمل بالعلم، فهذه الأركان الثلاثة هي ركائز الرفعة الموعودة في الآيات الكريمات، قال القرطبي: (﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا﴾ أي: بالعمل بها). (١)

وفائدة العمل بالعلم هو الثبات عليه، كما قال تعالى: {وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا ٦٦} [سورة النساء:٦٦].

والرفعة بالعلم أمر زائد على العلم؛ وهي زيادة فضل من الله عز وجل لعبده وتعجيلا لثوابه في الدنيا، كما أفاده ابن القيم. (٢) (٣)

هذا هو الظاهر من الآيات الكريمات.

وعدَل بعض المفسرين إلى خلاف الظاهر، وأن المراد بالرفعة هنا هي: "الرفع كما تقول العرب: رفعت الظلم عنه. والمراد: لرفعنا عنه ما وقع له إما الزنا، أو الخطيئة، أو معصية موسى –ﷺ– على الأقوال السابقة في سبب الانسلاخ. وروي عن مجاهد". (٤)

ولو صحَّ مثل هذا القول لأمكن حمله على معنى يليق بالآية الكريمة، كما قال مقاتل بن سليمان: (لرفعنا عنه، أو دافعنا عنه، على اعتبار أن الله عز وجل يُدافع عن الذين آمنوا فضلاً عن العلماء منهم الذين هم أولياؤه بحمايتهم والقيام على شؤونهم) (٥)، وهذا هو المقصود بالدفاع لو وقع؛ ولكنه لم يقع وقضى الله عليه بالهلاك.

---

(١) تفسير القرطبي ٤٢٥/٤.

(٢) هو: شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب الدمشقيّ، من أركان الإصلاح الإسلامي، وأحد كبار العلماء، ألّف تصانيف كثيرة منها: "إعلام الموقعين، ومدارج السالكين"، توفي سنة: ٧٥١ هـ. ينظر: الأعلام للزركلي ٥٦/٦.

(٣) مدارج السالكين ١١/٢.

(٤) ينظر: البحر المحيط ٣٣٦/٤.

(٥) المرجع السابق.

ومن نظائر هذا القول ما ذكره أبو حيان عن أبي نجيح أن المراد: (لرفعناه: لتوفيناه قبل أن يقع في المعصية ورفعنا عنه ذلك، وهو جانب من حماية الله لعبده المؤمن، كما وقع لكثير من الصالحين ذلك). ([1])

وأبعد قوم عن هذا كله إلى القول أن المراد بالرفع هنا: "الأخذ والبطش به، كما تقول: رفع الظالم إذا هلك، أي: على اعتبار الإهلاك بالمعصية" ([2])، وهو خلاف الأصل في إطلاق اللفظ العربي على الرفع الذي هو المكانة والشرف؛ بدليل الاستدراك بقوله: ﴿أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾، فدلَّ أن المراد الرفع إلى أعلى، ويمكن أن يحمل على معنى يليق بالآية، وتشهد له النصوص الأخرى في الوحيين في مسارعة العقوبة على العالم وتعجيلها له، ولا يعارض هذا حكاية القرآن بالاستدراج؛ فهو محكيٌّ عن الكفار، وأمَّا المؤمن فلا يُستدرج وإنما ترد عليه التنبيهات الإلهية مبكرة.

والمقصود من هذا كله حرمان التوفيق إلى الخير بمشيئة الله السابقة، حيث لم يوفق الله هذا الرجل لسلوك طريق العلماء الصالحين الذين انتفعوا بالعلم فأورثهم ذلك الرفعة في الدنيا والآخرة.

والكلام حول إرادة الله السابقة له بالشقاء، يقول ابن تيمية ([3]): "فصل الخطاب: أن الأمر ليس مستلزماً لمشيئة أن يخلق الرب الآمر الفعل المأمور به. ولا إرادة أن يفعله، وقد يأمره بشيء ولا يعينه عليه، فإن له حكمة بالغة فيما خلقه وأمر به. وفرق بين أن يريد أن يخلق هو الفعل ويجعل غيره فاعلاً يحسن إليه ويتفضل عليه بالإعانة له على مصلحته، وبين أن يأمر غيره بما يصلحه وإن كان هو لا يريد أن يعينه عليه؛ لما في ترك إعانته من الحكمة". ([4])

([1]) البحر المحيط ٣٣٧/٤.

([2]) ينظر: تفسير القرطبي ٢٣٥/٤. معالم التنزيل ٣٣/٣.

([3]) هو: تقي الدين ابن تيمية: الإمام، شيخ الإسلام، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام الحراني، آية في التفسير والأصول، من أشهر كتبه: "الفتاوى، ومنهاج السنة"، توفي سنة: ٧٢٨ هـ. ينظر: الأعلام للزركلي ١٤٤/١.

([4]) ينظر: مجموع الفتاوى ٤٧٧/٨.

المطلب الخامس: تقديم الحظوظ

الهوى حيثما أطلق في القرآن الكريم؛ فالمقصود: ما يقدمه الإنسان مما يهوى ويحب على ما يحبه الله ويريده. فتصرفات العبد مقيدة بحكم الله وأوامره، فإذا تجاوزها الإنسان إلى ما يحبه هو، فقد قدَّم هواه ومحبوبه على محبوب الله عز وجل. وقد ذكره القرآن مراراً كصفات للكفار والمنافقين؛ وربما أطلقه للتحذير منه.

قال ابن عاشور: "واتباع الهوى ترجيح ما يحسن لدى النقص في النقائص المحبوبة، على ما يدعو إليه الحق والرشد، والهوى شارع في المحبة المذمومة الخاسرة عاقبتها" ([1])، وبما أطلق وأريد به لازم المعنى، أي: أنه أعرض عن التمسك بما آتاه الله في الآيات.

والآية الكريمة لا تتقيد بهوى الشخص نفسه؛ بل ويدخل في هذا هواه وهوى المتسلطين عليه في حفظ المنصب والجاه. وكم من عالِمٍ رأيناه يعلم حقيقة دين الله ثم يزيغ عنها، ويعلن غيرها، ويستخدم علمه في التحريفات المقصودة والفتاوى المطلوبة لسلطان الأراضي الزائلة.

وقد أخبر الله عز وجل عن هذا الرجل بأنه اتبع هواه بقوله: {وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ}، أي: ما يهواه ويحبه.

ومقصود الآية أنه اتبع هواه ولم يتبع الآيات.

لذا قال القرطبي: "كان هواه مع الكفار" ([2])، أو اتبع ما زين له الشيطان. ([3])

وقد تباينت آراء العلماء في الصورة التي تصدق على هذا الرجل في اتباعه هواه، وقيل اتبع أمر زوجته، وكانت رغبت في أموال، حتى حملته على الدعاء على موسى -ﷺ-،

([1]) ينظر: التحرير والتنوير ١١٠/٤.

([2]) ينظر: تفسير القرطبي ٣١٥/٥.

([3]) ينظر: تفسير القرطبي ٣١٥/٥. ولم يعزه لقائل.

وهذا مبني على أن ضلال بلعام سببه الدعاء على موسى بالتيه، وأن الله عز وجل استجاب له لكونه مجاب الدعوة. ([1])

وقد بيَّنتُ ضعفه سابقاً وأنه لا يصح.

ومن جملة ما يذكره بنو إسرائيل عن صلاح بلعام. قال محمد رشيد رضا ([2]): "وقد مضت سنة الله عز وجل في عباده أن اتباع الإنسان لهواه بتحريه وتشهيه ما تميل إليه نفسه في كل عمل، دون ما فيه مصلحة له من حيث هو جسد وروح، يضله عن سبيل الله الموصلة إلى سعادة الدنيا والآخرة، وقد قال الله عز وجل لداود -ﷺ-: {وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ}". ([3])

وقال تعالى في أول ما أوحاه إلى كليمه موسى -ﷺ-: {وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ ١٦} [سورة طه:١٦].

والآيات متظافرة على أن اتباع الهوى طريق إلى الضلال، وأكثر ما يكون اتباعه في الأمور التي لم يرد في تعيينها نص.

والآية الكريمة فيها خطورة على العالِم في اتباع ما يهوى؛ وتقديم محابه على محاب الله عز وجل ، وأن ضلاله أسرع من ضلال غيره، وعاقبته أسوأ من عاقبة غيره، وجزاءه أشد من جزاء غيره.

قال الرازي: "وهذه الآية من أشد الآيات على أصحاب العلم، لأنه تعالى بعد أن خص الرجل بآياته وبيناته، وعلَّمه الاسم الأعظم، وخصَّه بالدعوات المستجابة، لما تبع الهوى

([1]) تفسير القرطبي ٤/٢٢٥.

([2]) هو: محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين القلموني، من أشهر آثاره: "مجلة المنار، وتفسير القرآن الكريم"، توفي سنة: ١٣٥٤ هـ. ينظر: الأعلام للزركلي ٦/١٢٦.

([3]) ينظر: تفسير المنار ٤/٤٣٥.

انسلخ من الدين وصار في درجة الكلب، وهذا يدل أن كل من كانت نِعم الله في حقه أكثر، كان بُعده عن الله أعظم". (١)

فكل ما قيل إنه ترك العمل بما يقضيه العلم الذي علَّمه الله وهو حطام الدنيا، أو كان هواه مع الكفار، أو أنه اتبع رضا زوجته، يدخل في عموم اتباع الهوى المنصوص عليه في الآية وإن كان بعضه ضعيفًا كما بيَّنتُ.

ويشهد لهذا المعنى من القرآن قوله تعالى: {وَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ جَعَلۡنَا بَيۡنَكَ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ حِجَابٗا مَّسۡتُورٗا ٤٥} [سورة الإسراء:٤٥].

قال ابن عاشور: "فإنه لما عاند حصلت في نفسه ظلمة، مكنت الشيطان من استخدامه وإدامة إضلاله، فالانسلاخ أثر من وسوسة الشيطان، وإذا أطاع الإنسان الوسوسة تمكن الشيطان من مقاده". (٢)

وكان هذا الاتباع سبب في الانحراف، فإن تمكن الشيطان منه يقضى على كثير مما قام في قلبه، لذا رتب الله عز وجل الغواية عليه؛ فقال: {فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ١٧٥} [سورة الأعراف: ١٧٥]، وهي مرتبة في وقوع الانسلاخ، ثم الاتباع، ثم الغواية.

وقد بالغ الإمام الغزالي (٣) في وصف حال بلعام في الصلاح، وكيف آل أمره إلى زمرة من الضالين الراسخين في الغواية، بعد أن كان في زمرة العلماء الراسخين؛ فقال: "كان بلعام بحيث إذا نظر رأى العرش، ولم يكن له إلا زلة واحدة، مال إلى الدنيا وأهلها ميلة واحدة". (٤)

---

(١) ينظر: مفاتيح الغيب ٣١٥/٤.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير ٤١١/٤.

(٣) هو: محمد بن محمد مجد الدين الطوسي، حجة الإسلام، فيلسوف، متصوف، سمي بالغزالي نسبة إلى غزالة من قرى طوس، من أشهر كتبه: "إحياء علوم الدين، ومقاصد الفلاسفة"، توفي سنة: ٥٠٥ هـ. ينظر: الأعلام للزركلي ٢٢/٧.

(٤) ينظر: إحياء علوم الدين ١١/٢.

والآيات الكريمات متلاحمة فالسبب في اتباع الشيطان إياه هو اتباع للهوىٰ، لكون الهوىٰ باب الشيطان الذي يدخل منه إلىٰ القلوب، فلما اتبع الهوىٰ اتبعه الشيطان، حيث عاقبه الله عز وجل من جنس عمله، واتبعه الشيطان في بداية الضلالة؛ لتتمكن منه في الغواية، وهو ما وقع له فعلاً بقوله: {فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ١٧٥} [سورة الأعراف: ١٧٥].

فشرارة الغواية هي الانسلاخ من العلم والدين، أو عدم العمل به، ثم يكون أثر الشيطان في العبد ومحاولة التمكن منه؛ إلىٰ أن يصبو إلىٰ مقصده، ليكون بذلك العبد في زمرة الغاوين.

وقد أورد أبو حيان قولاً محتملاً: "أن الذين تبعوه هم من الإنس أهل الكفر والضلال الذين كانوا سببًا في ضلاله، وهو غير وارد لمخالفته للتنصيص في أن التابع له هو الشيطان". (١)

(١) ينظر: البحر المحيط ١١/٥.

المبحث السادس: عدم العمل بالعلم

أخبر الله عز وجل عن شأن بلعام أنه كذَّب بالآيات؛ وهو في قوله: {سَاءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُم كَانُواْ يَظْلِمُونَ ١٧٧} [سورة الأعراف:١٧٧]، ولم يرد في كتب المفسرين عند تفسيرهم لهذه الآية أنه كفر بلسانه، أو كذَّب بما آتاه الله بلسانه، ولم يذكر أحد منهم ذلك في المراد بالتكذيب، وإنما الوارد هو الإخبار عن حاله بأنه انسلخ منها بما يقتضيه الانسلاخ؛ إما بقلبه، أو بجوارحه، وكله مذكور في جملة الأسباب المستنبطة في كتب التفسير.

وربما كان التكذيب تفسيرًا للانسلاخ المصدر في الآية الكريمة، فإن انسلاخه كفر وتكذيب بحاله وواقعه.

وقد فسَّره القرطبي "بعدم العمل بالعلم" ([1])، وهو مشكل لأن عدم العمل بالعلم ليس كفرًا على سبيل الإطلاق، إلا ما ورد النص في كفر تاركه؛ كالصلاة مثلاً.

والآية إخبار بأنه لما انسلخ من الآيات كان ذلك بمثابة التكذيب بها، لأن اعتقادها والعمل بها تصديق بها، والتصديق يقابله التكذيب.

والتكذيب بالآيات مقرون بالتشبيه بالكلب؛ لأنه قال: {ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ} [سورة الأعراف:١٧٦]، ووجه الشبه في هذا المثل الخسيس؛ هو في التشبيه باليهود الذين علموا الآيات وعرفوها فحرَّفوا وبدَّلوا وكتموا صفة رسول الله -ﷺ- وكذَّبوا به.

وكل ما مضى من الأسباب مع هذا السبب هو داخل في جملة التكذيب بالآيات التي أعطاها الله عز وجل لبلعام.

والقرآن الكريم قدَّر قضية مهمة في المكذبين بالآيات قولاً، أو حالاً، أو عمداً، وهو التشبيه بالبهائم فشبَّه اليهود بالحمير، وفي هذا المثل التشبيه بالكلب، ثم قدَّر القضية

([1]) ينظر: تفسير القرطبي ١١/٥.

بشكل أوسع حينما شبههم بالأنعام؛ فقال: {أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ} [سورة الأعراف:١٧٩].

قال الرازي: (فلما أعرض الكفار عن اعتبار أحوال العقل والفكر ومعرفة الحق والعمل به كانوا كالأنعام). (١)

وهذا المثل في قول كثير من أهل العلم بالتأويل عام في كل من أوتي القرآن فلم يعمل به.

"قال مجاهد في قول تعالى: "فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث" أي: إن تحمل عليه بدابتك أو برجلك يلهث أو تتركه يلهث. وكذلك من يقرأ الكتاب ولا يعمل بما فيه". (٢)

ومن عواقب عدم العمل بالعلم نزع العلم، قال القرطبي: "فانسلخ منها؛ أي: نزع منه العلم الذي يعلمه، والعلم علمان: علم في القلب فذلك العلم النافع، وعلم في اللسان فذلك حجة الله تعالى على بني آدم، فهذا مثل علم بلعام وأشباهه، نعوذ بالله منه ونسأله التوفيق والممات على التحقيق". (٣)

---

(١) مفاتيح الغيب ٣١٥/٤.

(٢) ينظر: تفسير القرطبي ٢٨٧/٤.

(٣) المرجع السابق.

المطلب السابع: انتهاز الشيطان فرصة الضعف

يتربص الشيطان بالإنسان حال ضعفه فيكون أقوى عندها من غيره، والنصوص الشرعية مليئة بهذه المعاني؛ كتربُّصه بالإنسان حال النوم، وحال الجنابة، وحال الحيض عند النساء، وغيرها من الحالات.

والشيطان أكثر ما يتربص بالنساء والصبيان لضعف قوتهم العاقلة. ولا يخفى مثال حديث: «إِذَا كَانَ جُنْحُ اللَّيْلِ، أَوْ أَمْسَيْتُمْ، فَكُفُّوا صِبْيَانَكُمْ، فَإِنَّ الشَّيَاطِينَ تَنْتَشِرُ حِينَئِذٍ، فَإِذَا ذَهَبَتْ سَاعَةٌ مِنَ اللَّيْلِ فَخَلُّوهُمْ، وَأَغْلِقُوا الأَبْوَابَ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لاَ يَفْتَحُ بَابًا مُغْلَقًا» ([1]).

والله عز وجل لما أعطى هذا العالِم من آياته، وخلع له من معروفه وأفضاله، وانسلخ وجعلها وراء ظهره، صار الشيطان في أثره ولحقه وصار معه، وهو المعني بقوله: {فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ}.

قال أبو عبيدة ([2]): (اتبع القوم: أي لحقهم). ([3])

ومن بدع التفاسير: أن الآيات الكريمات كانت له بمنزلة الغطاء الواقي، والدرع الحامي، فلما سلخها من نفسه أصبح غرضًا للشيطان، لا يقيه منه واق، ولا يحميه حام.

ولهذا انتهز الشيطان هذه الغفلة، بالاستحواذ عليه والتسلط على قلبه، فالآية تدل أنه كان في وقاية من كيد الشيطان حين كان متلبسًا بالقرآن؛ فلما فارقها أتبعه الشيطان. هذا هو المقصود من الآية على سبيل الإجمال.

([1]) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب- الأشربة، باب- تغطية الإناء، ٧/١١١، رقم ٥٦٢٣.

([2]) هو: معمر بن المثنى البصري، من رؤوس العلم والأدب واللغة، من أشهر كتبه: "مجاز القرآن، ومآثر العرب"، توفي سنة: ٢٠٩ هـ. ينظر الأعلام للزركلي ٧/٢٢٧.

([3]) مجاز القرآن ص: ٣١١.

المبحث الثاني: الأسباب المستنبطة من كتب التفسير حول الواقعة

في كتب التفسير جملة من الآثار والأسباب التي لا يألوا جهد المفسرين في ذكرها، مع غضِّ الطرف عن أسانيدها، وقد ذكروا جملة من الأسباب في ضلال بلعام، زائدة عما وقع في كتاب الله من الألفاظ المنصوصة في سبب الضلال.

وقد بلغت فيما أحصيتُه إلى عشرة أسباب أذكرها على سبيل الإجمال.

فمنها: أن هذا مثلاً ضربه الله عز وجل لمن قبِل الرشوة في الدين. قال القرطبي: (ضرب الله مثلاً للذي قبل الرشوة في الدين، حتى انسلخ من آيات ربه). (١)

ومنها: الاغترار بالعمل الصالح. قال القرطبي: (فدلت الآية الكريمة لمن تدبرها على ألا يغتر أحد بعمله ولا بعلمه). (٢)

ومنها: "أن الله عز وجل علَّمه الاسم الأعظم، فدعا به على موسى –ﷺ– وهو نبي من الأنبياء فهلك بهذا الدعاء". (٣)

ومنها: أنه لم يشكر ربه على ما أعطاه من النعم، فسلب الله عنه العلم، وفي الأثر: أن الله تعالى قال: «لم يشكرني في يوم من الأيام على ما أعطيته، ولو شكرني على ذلك مرة لما سلبته». (٤)

ومنها: تقليد العالِم، إذ الواجب في حقه هو طلب الحجة لا التقليد بدون حجة، ذكره القرطبي انتزاعا فقال: "ودلت الآية على منع التقليد للعالم إلا بحجة يبينها، لأن الله أخبر أنه أعطاه آياته، فانسلخ منها فوجب أنه يخاف مثل هذا على غيره وألا يقبل منه إلا بحجة". (٥)

---

(١) تفسير القرطبي ٢١٢/٤.

(٢) تفسير القرطبي ٢١٣/٤.

(٣) البحر المحيط ٤٢٥/٤.

(٤) لا يصح، وقد نقله أبو حيان بصيغة التمريض بدون سند.

(٥) ينظر: تفسير القرطبي ٢١٣/٤.

ومنها: "أنه أعطي ثلاث دعوات مستجابات فدعا بها على غير أهلها". ([1])

ومنها: "أنه اتبع رضا زوجته في غير طاعة الله عز وجل". ([2])

ومنها: أنه لم يعمل بعلمه، وقد ذكرت في جملة الأسباب المنصوصة. ([3])

ومنها: أنه سجد للشيطان، وقد ذكرته استشهادًا في جملة الأسباب.

ومنها: أنه فعل معصية ما فنزع الله عنه العلم. وقد عيَّنه أبو حيان بالزنا، فقال: (لرفعنا عنه ما وقع له إما الزنا، أو الخطيئة، أو معصية موسى). ([4])

فهذه جملة ما قيل في أسباب الضلال، وقد ناقشتُ بعضها عند ذكر الأسباب المنصوصة، وهي مستخرجة من النص القرآني كما ترى، وواردة بلا شك بمثابة الأقوال المحتملة للآية.

والجدير بالذكر أنها أسباب صحيحة حقيقية تقود إلى الضلال والانحراف، وإن كانت الآيات الكريمات لا تدل عليها صراحة؛ ولا تصل إلى درجة القطع.

([1]) معالم التنزيل ٥/١١٠.

([2]) البحر المحيط ٤/٤٢٥.

([3]) ينظر: ص: ١٤.

([4]) البحر المحيط ٤/٤٢٥.

الفصل الثاني: آثار انحراف العلماء في القرآن الكريم

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: الجنوح إلى صفة البهائم

المبحث الثاني: الهلاك

المبحث الثالث: التسفيل

المبحث الأول: الجنوح إلى صفة البهائم

جرت عادة القرآن الكريم تشبيه الكفار بالبهائم، وهي قضية مطردة في كتاب الله ﷻ؛ كقوله تعالى: {أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ١٧٩} [سورة الأعراف:١٧٩].

والجامع في هذا التشبيه هو تعطيل العقل عما أراده الله عز وجل ، فالعقل هو الصفة التي يتمايز بها المخلوقات.

قال عطاء: "الأنعام تعرف الله، والكافر لا يعرفه" ([1])، ولأن همتهم الأكل والشرب وهم أضل من الأنعام؛ لأن الأنعام تبصر منافعها ومضارها وتتبع مالكها وهم بخلاف ذلك.

وقد وقع التشبيه على نوع خاص من البهائم لم يرد في القرآن نظيره وهو الكلب، وهو يدل على خطورة الانحراف وشدة الأثر، وقد تكلم المفسرون في أوجه الشبه بين العالِم الضال والكلب، وممن أسهب في ذكر أوجه الشبه بينهما ابن القيم في كتابه النفيس "أمثال القرآن". ([2])

وقد شبَّه الله عز وجل الكفار عمومًا بالبهائم؛ وشبَّه العالِم الضال بالكلب، وإن كان الكلب من البهائم فلابد أن تكون هناك صفة قوية ملازمة لهما أوجبت هذا.

([1]) ينظر: معالم التنزيل ١١/٤. وهو: عطاء بن أبي رباح –رضي الله عنه–، ونفي معرفة الكافر لربه نسبي؛ لأن الكافر يعرف الله أيضاً ولكنه يجحده استكباراً؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ﴾ [سورة النمل:١٤].

([2]) ينظر: أمثال القرآن ص: ٢٣.

وبالرجوع إلى صفات الكلب التي عليها يمكن الوصول إلى معنى دقيق في وجه الشبه بينه وبين العالِم.

وتتأكد هذه الملازمة ليس في الكلب فقط؛ وإنما هو الكلب اللاهث، فالتشبيه لم يقع في جميع الكلاب وإنما وقع بالكلب اللاهث.

ومعروف أن الكلب من أخس الحيوانات، وأخس الكلاب هو الكلب اللاهث، فمن آتاه الله العلم والدِّين فمال إلى الدنيا؛ وأخلد إلى الأرض، كان مشبها بأخس الحيوانات، وهو الكلب اللاهث.

وقد بحثتُ عن تقرير هذا التمثيل فلم يعثر قلبي على قول ترتاح إليه النفس في وجه الشبه بين العالِم الضال والكلب، والأمر كما قال ابن عاشور: "وقد أغفل هذا الذين فسروا هذه الآية فقروا التمثيل بتشبيه حالة بسيطة في مجرد التشويه أو الخسة فيؤول إلى أن الغرض من التشبيه بالكلب إظهار خسة المشبه ([1])، وذلك تقصير في حق التمثيل". ([2])

ولعل أقرب الأقوال في تقرير التمثيل هو: أن الكلب يلهث إذا تعب، أو اشتد عليه الحر، ويلهث بدون ذلك، لأن في خلقته ضيقاً في مجاري النفس يرتاح له باللهث.

قال ابن عاشور: (واللهث: حالة تؤذن بجرح الكلب من جراء عسر نفسه عن اضطراب باطنه، وإن لم يكن الاضطراب باطنه سبب آتٍ في غيره). ([3])

فالكلب إنما يلهث لعلة اضطراب في داخله، وكذلك هذا العالِم الضال معلول من الداخل كذلك كالكلب المضطرب.

فالتشبيه اعتبار ما يتصف به الكلب في أصل خلقته من الاعتلال والاضطراب، وهو من تشبيه المعقول بالمحسوس، وقد جر هذا الاضطراب إلى الإخلاد إلى الأرض واتباع الهوى،

([1]) كما درج عليه في الكشاف ٢/٣١١.

([2]) ينظر: التحرير والتنوير ٣/٢١٥.

([3]) ينظر: التحرير والتنوير ٤/٢١٢. وقوله منتزع من مجموع أقوال السلف -†- في ذلك.

هذا هو الظاهر من هذا التشبيه، وبه يرتفع كثير من الإشكالات حول تقرير التمثيل.

ولا عبرة بمن قال إن المقصود هو هذا اللهاث وراء حطام الدنيا وأعراضها ([1])، فإن هذا المعنى قريب لا تحتمله الآية وإن كان لزاماً لها، فإن الله عز وجل أخبر أنه أخلد إلى الأرض، وهو معنى عربي معاصر لا يمكن تنزيل الآية عليه على سبيل التنصيص.

ويعدل ابن القيم رأياً ربما كان موفقاً فيه؛ حيث يقول: "شبهه بالكلب الذي هو من أخبث الحيوانات وأوضعها قدراً، وهمته لا تتعدى بطنه، ومن حرصه أنه لا يمشي إلا وخطمه في الأرض ليتشمم ويتروح حرصاً وشرهاً، ولا يزال يشم دبره سائر أجزائه، وإذا رميت له حجراً رجع إليه ليعضه من فرط نهمه، وهو من أمهن الحيوانات وأرضاها بالدنايا، والجيف المروحة أحب إليه من اللحم الطري، والقذارة أحب إليه من الحلوى، وإذا ظفر بميتة تكفي مائة كلب لم يدع كلباً يتناول معه منه شيئاً، إلا هرَّ عليه كأنه يتصور مشاركته له ومنازعته في قوته، وإذا رأى ذا هيئة حسنة وثياب جميلة وضع له خطمه بالأرض". ([2])

فمن مجموع ما ذكره ابن القيم نلحظ أن من صفات الكلب النهم، واللهث، والطمع، والبخل، والذلة، وهذه هي صفات العالِم الذي لم يرفع بالعلم رأسًا.

ومن الأقوال المنقولة: أنك إذا حملتَ على الكلب نبح وولى هارباً، وإذا تركته شدَّ عليك ونبح، فيتعب نفسه مقبلاً عليك ومدبراً عنك.

وقيل: شبهه بالكلب من بين السباع لأن الكلب ميت الفؤاد، وإنما لهاثه لموت فؤاده. ([3])

وقال الحسن: هو مثل المنافق لا ينيب إلى الحق دُعي أو لم يدع، أعطي أو لم يعط كالكلب يلهث طرداً وتركاً.

([1]) يشير بهذا إلى قول سيد قطب، ينظر: في ظلال القرآن ٢١/٥.

([2]) ينظر: أمثال القرآن ص: ٢٣.

([3]) ينظر: تفسير القرطبي ٢٧٨/٤. نقل القرطبي هذه الأقوال ولم يعزها لقائل.

وهذا فيه نظر، فإن الله عز وجل شبهه بالكافر، وأمره أعظم من النفاق، غير ما في هذا المعنى من المعاني القريبة بالتشبيه بالكلب بعيداً عن مقصود التشبيه. والله أعلم.

المبحث الثاني: الهلاك

ألمح القرآن الكريم إلى جزاء من ضل عن علم بعد هواه في هذه القصة بقوله: {وَمَن يُضۡلِلۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٧٨} [سورة الأعراف:١٧٨]، والخسران لفظ عام يراد به مطلق الهلاك. قال ابن فارس (١): (الخسران: أصل واحد يدل على النقص، فيقال: خسرت الميزان وأخسرته إذا أنقصته). (٢)

والخسارة المقصودة في الآية هو الخروج من الألطاف الإلهية المتعلقة بالهداية الربانية. قال الرازي: (من يهده الله بالألطاف وزيادة الهدى فهو المهتدي، ومن يضلل لما تقدم منه من سوء اختياره وأفعاله فهو من الخاسرين أي: خسروا الدنيا والآخرة). (٣)

والخسارة هي الهلاك مطلقًا في النفس والمال والولد، ووجه ذلك أن من شأن الإيمان أن يستمر عملاً، وأن الكفر فلا يستمر شيئًا، لذا كان التعبير بالخسارة من أدق الأوصاف في حق الكافر، لأنه يخسر بذلك مواهب نفسه التي كان بها إنسانًا مستعدًا للسعادة؛ فتفوته هذه السعادة فوتًا إضافيًّا في الدنيا وحقيقيًّا في الآخرة.

والخسارة الحرمان الابتدائي الإلهي من التوفيق لعدم صلاح المحل القابل للهداية، والآية فيها إشارة إلى هذا بقوله: {مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِيۖ}، ثم قال: {وَمَن يُضۡلِلۡ}، أي: من يخذله بالحرمان من هذا التوفيق فيتبع هواه وشيطانه من ترك استعمال عقله وحواسه في فقه آيات الله فهو الكفور الخاسر.

---

(١) هو: أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازيّ، من أئمة اللغة والأدب، من أشهر كتبه: "مقاييس اللغة"، توفي سنة: ٣٩٥ هـ. ينظر: الأعلام للزركلي ١/١٩٣.

(٢) ينظر: معجم مقاييس اللغة. مادة "خسر": ٢/١٨٢.

(٣) ينظر: مفاتيح الغيب ٤/٣١٥.

والمقدمات المذكورة في الآيات قبله من اتباع الهوى والانسلاخ وتقديم الحظوظ؛ كلها أسباب حقيقية تقود إلى الضلال الذي يقود إلى الخسارة، فإن الخسارة هي نتيجة هذا الضلال المذكور في الآيات.

قال ابن عاشور: "وقد علم من مقابلة الهداية بالإضلال، ومقابلة المهتدي بالخاسر أن المهتدي فائز رابح، فحذف ذكر ربحه إيجازًا، والخسران أستعير لتحصيل ضد المقصود في الربح والفوز". (1)

(1) ينظر: التحرير والتنوير ١٨١/٩.

وهو المشار إليه بقوله: {وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا}، فإنه سبحانه لم يشأ رفعه فعاقبه بالتسفيل، وهو نظير ما حصل لآدم -ﷺ- في قوله تعالى: {قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ} [سورة البقرة:٣٨]، والمخالفة توجب العقوبة.

والهبوط: النزول والانحدار. وهو في آدم حسي، وفي حق صاحب القصة الواردة في سورة الأعراف معنوي؛ كقوله تعالى: {وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ ٤} [سورة الشرح:٤]، وكما أن سبب انحراف العبد هو التشويه في الفطرة، فالمعصية تشوه الفطرة، ففي مبادرة آدم -ﷺ- إلى الستر وتغطية ما انكشف من عورته دليل على استقباح كشف العورة، وأن ذلك إنما هو بسبب نداء الفطرة في الإنسان.

وظاهر الآيات: {وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ}، أي: انخفض وحال الأرض الأنزل الأرذل.

قال القشيري (١): "موافقة الهوى تنزل صاحبها من سماء العز إلى تراب الذل وتلصقه في وهدة الهوان، ومن لم يصدق علمًا فعن قريب يقاسيه وجودًا".

وقال: "إذا كانت مساكنة آدم للجنة وطمعه في الخلود فيها أوجب خروجه عنها، فالركون إلى الدنيا متى يوجب البقاء فيها". (٢)

والثبات على العلم سبب للرفعة عن الضعة، لذلك قال الله تعالى عن نبيه: {وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ ٤}، قال القرطبي: (أعلينا ذكرك فذكرناك في الكتب المنزلة، وأمرناهم بالبشارة

---

(١) هو: عبد الكريم بن هوازن بن طلحة النيسابوري القشيري، مفسر، من أشهر كتبه: "لطائف الإشارات، والتفسير الكبير"، توفي سنة: ٤٦٥ هـ. ينظر: الأعلام للزركلي: ٤/٥٧.

(٢) ينظر: لطائف الإشارات ٥/٤١.

بك، ولا دين إلا ودينك يظهر عليه، ونرفع في الآخرة ذكرك بما نعطيك من المقام المحمود، وكرائم الدرجات). ([1])

([1]) ينظر: تفسير القرطبي ١٠٧/٢٠.

الخاتمة

❖ النتائج والتوصيات:

وبعد هذه الجولة في هذا البحث فقد ظهر لي ما يأتي:

١. أهمية حماية الفطرة من الانحراف، فالفطرة هي الأساس الجِبِلي الذي طالما أولاه القرآن عنايته على كافة المجالات، سواء الفطرة العقلية؛ أو الفطرة الجسدية.

٢. أن العلماء هم أكثر الناس تعرضًا للانحراف، لذا فقد أمرهم الله عز وجل بأخذ الكتاب بقوة؛ كما قال تعالى: {يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ} [سورة مريم:١٢].

٣. أهمية تقديم محاب الله عز وجل على محاب النفس، وقد سمَّى الله عز وجل ذلك بالهوى، فمن أطاع هواه فقد قدم محاب نفسه على ما يحبه الله تعالى؛ وهذا هو الزيغ والضلال.

٤. أن الانحراف في العلماء انحراف في الأمة، لأن العلماء هم صمام الأمان للناس؛ فإليهم يرجعون؛ وإليهم يحتكمون، فإذا زلَّ العلماء حصل الزيغ في الناس.

٥. أهمية تخلي العلماء عما في أيدي الناس من المطامع والشهوات والميل إلى المناصب، والرضا بما في يد الله عز وجل ؛ والقناعة به وإن كان قليلا.

٦. أن العمل بالعلم سبب للثبات على الدين؛ كما قال تعالى: {وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا ٦٦} [سورة النساء:٦٦].

٧. أهمية نبذ الحظوظ الدنيوية، فالعلماء ينبغي أن يترفعوا عن حظوظ الناس؛ وألا يشتروا الدنيا بالدين.

٨. أن من أعظم نعم الله عز وجل وأجلها نعمة العلم، لذا كان سلبها من أسرع الأشياء إن وجدت أسباب السلب والمحق؛ من الانسلاخ والإخلاد إلى الأرض.

٩. خطورة الانحراف عمومًا، ومسارعة العقوبات الإلهية لذلك؛ من التسفيل والهلاك والانحدار إلى أوصاف البهائم.

وأخيرًا أسأل الله عز وجل التوفيق في الدنيا والآخرة، إنه على كل شيء قدير، وبالإجابة جدير.

فهرس المصادر والمراجع:

١ القرآن الكريم.

٢ الأعلام" للزركلي (ت: ١٣٩٦هـ) طبعة دار العلم للنشر.

٣ أمثال القرآن" ابن قيم الجوزية (ت: ٧٥١هـ) طبعة مطابع الصفا – مكة المكرمة – المملكة العربية السعودية– تحقيق ناصر بن سعد الرشيد.

٤ إحياء علوم الدين" لأبي حامد الغزالي (ت: ٥٠٥هـ) طبعة دار المعرفة للنشر – بيروت –.

٥ البحر المحيط في التفسير" لأبي حيان (ت: ٧٤٥هـ) طبعة دار الفكر للنشر – بيروت – تحقيق صدقي محمد جميل.

٦ البحر المديد في تفسير القرآن المجيد" لابن عجيبة (ت: ١٢٢٤هـ) طبعة الدكتور حسن عباس زكي – القاهرة – تحقيق أحمد عبد الله القرشي رسلان.

٧ تاريخ الأمم والرسل والملوك" للطبري (ت: ٣١٠هـ) طبعة دار الكتب العلمية – بيروت –.

٨ التحرير والتنوير" لابن عاشور التونسي (ت: ١٣٩٣هـ) طبعة الدار التونسية للنشر – تونس –.

٩ التفسير البسيط" الواحدي (ت: ٤٦٨هـ) تحقيق ونشر جامعة الإمام محمد بن سعود.

١٠ تفسير القرآن الحكيم = تفسير المنار" لمحمد رشيد رضا (ت: ١٣٥٤هـ) طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب للنشر.

١١ تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (ت: ٧٧٤هـ) طبعة دار طيبة للنشر والتوزيع بتحقيق سامي بن محمد سلامة.

١٢ جامع البيان في تأويل القرآن" للطبري (ت: ٣١٠هـ) طبعة مؤسسة الرسالة للنشر بتحقيق أحمد محمد شاكر.

١٣ الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي" لشمس الدين القرطبي (ت: ٦٧١هـ) طبعة دار الكتب المصرية – القاهرة – بتحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش.

١٤ الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه = صحيح البخاري" للبخاري (ت: ٢٥٦هـ) طبعة دار طوق النجاة للنشر تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر.

١٥ زاد المسير في علم التفسير" لابن الجوزي (ت: ٥٩٧هـ) دار الكتاب العربي للنشر – بيروت – تحقيق عبد الرزاق المهدي

١٦ السنن الكبرى" للنسائي (ت: ٣٠٣هـ) طبعة مؤسسة الرسالة للنشر – بيروت – بتحقيق وتخريج أحاديثه حسن عبد المنعم شلبي، إشراف شعيب الأرناؤوط، تقديم عبد الله بن عبد المحسن التركي.

١٧ سير أعلام النبلاء" للذهبي (ت: ٧٤٨هـ) طبعة مؤسسة الرسالة للنشر تحقيق مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط.

١٨ صلة الجمع وعائد التذييل لموصول كتابي الإعلام والتكميل = فسير مبهمات القرآن" للبلنسي (ت: ٧٨٢هـ) طبعة دار الغرب الإسلامي تحقيق حنيف بن حسن القاسمي/ عبد الله عبد الكريم.

١٩ في ظلال القرآن" لسيد قطب (ت: ١٣٨٥هـ) طبعة دار الشروق – القاهرة– بيروت –.

٢٠ الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل" للزمخشري جار الله (ت: ٥٣٨هـ) طبعة دار الكتاب العربي للنشر – بيروت –.

٢١ الكشف والبيان عن تفسير القرآن" لثعلبي (ت: ٤٢٧هـ) طبعة دار إحياء التراث العربي للنشر – بيروت – لبنان – تحقيق الإمام أبي محمد بن عاشور مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي.

٢٢ لطائف الإشارات = تفسير القشيري" للقشيري (ت: ٤٦٥هـ) طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب للنشر – مصر– تحقيق إبراهيم البسيوني.

٢٣ مجاز القرآن" لأبي عبيدة (ت: ٢٠٩هـ) طبعة مكتبة الخانجى للنشر – القاهرة– تحقيق محمد فواد سزكين.

٢٤ مجموع الفتاوى" لابن تيمية الحراني (ت: ٧٢٨هـ) طبعة دار الوفاء– تحقيق أنور الباز/ عامر الجزار.

٢٥ المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز" لابن عطية (ت: ٥٤٢هـ) طبعة دار الكتب العلمية – بيروت – تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد.

٢٦ مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين" لابن قيم الجوزية (ت: ٧٥١هـ) طبعة دار الكتاب العربي – بيروت – تحقيق محمد المعتصم بالله البغدادي.

٢٧ مسند الإمام أحمد بن حنبل" لأبي عبد الله أحمد بن (ت: ٢٤١هـ) طبعة دار الحديث – القاهرة – بتحقيق أحمد محمد شاكر.

٢٨ المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم = صحيح مسلم" لمسلم (ت: ٢٦١هـ) طبعة دار إحياء التراث العربي – بيروت – تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي.

٢٩ معالم التنزيل في تفسير القرآن = تفسير البغوي" للبغوي الشافعي (ت: ٥١٠هـ) طبعة دار إحياء التراث العربي للنشر – بيروت – تحقيق عبد الرزاق المهدي.

٣٠ معاني القرآن" للفراء (ت: ٢٠٧هـ) طبعة دار المصرية للتأليف والترجمة – مصر – بتحقيق أحمد يوسف النجاتي/ محمد علي النجار/ عبد الفتاح إسماعيل الشلبي.

٣١ معجم مقاييس اللغة" لابن فارس (ت: ٣٩٥هـ) طبعة دار الفكر للنشر تحقيق عبد السلام محمد هارون.

٣٢ مفاتيح الغيب = التفسير الكبير" للرازي (ت: ٦٠٦هـ) طبعة دار إحياء التراث العربي للنشر – بيروت –.

٣٣ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور" للبقاعي (ت: ٨٨٥هـ) طبعة دار الكتاب الإسلامي للنشر – القاهرة –.

٣٤ النكت والعيون = تفسير الماوردي" للماوردي (ت: ٤٥٠هـ) طبعة دار الكتب العلمية للنشر – بيروت – لبنان – تحقيق السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم.